الفصل الخامس

كيف انتشرت المسيحية في أوروبا؟

لقد جرى التعبير دائما عن المسيحية بأنها ديانة أوروبية. فرغم نشأتها في الشرق إلا أن التبشير بها في أوروبا، وقيام الغرب بحمل لوائها عبر القرون ومحاولاته المستمرة لنشرها في كل مكان، قد جاء تحقيقا لتلك المقولة.

ويهمنا في هذا المبحث أن نتعرف على العوامل والظروف والوسائل التي استخدمت لجعل المسيحية دينا لأوروبا. ولا يعنينا في هذا المقام أن نستقصي دخول المسيحية كل البلاد الأوروبية، فذاك شيء فوق طاقة هذا الكتاب. إلا أن تتبع الخطوط العامة لغزو المسيحية لأوروبا، وعرض نماذج للوسائل والأساليب التي تحولت بها كثير من شعوب أوروبا وقبائلها إلى المسيحية؛ يعتبر أمرا بالغ الأهمية.وهذا ما سوف نراه من خلال مرجع هام هو «تاريخ إرساليات التبشير المسيحية» للمبشر الإنجليزي ستيفن نيل.

فرنسا وألمانيا:

يقول ستيفن نيل: «لقد شهدت نهاية القرن الخامس في فرنسا حادثا، اعترف بحق أنه إحدى نقط التحول في التاريخ المسيحي، ألا وهو تعميد كلوفيس ملك الفرنجة مسيحيا. فعندما انهارت القوة الرومانية القديمة، فإن أوروبا الغربية صارت بمرور الزمن نهبا للشعوب البربرية التي تدفقت عليها من الغابات الألمانية وسهول وسط أوروبا. ورغم أن الفرنجة خلعوا اسمهم على فرنسا، فقد كانوا شعبا ألمانيا، وكانوا في نفس الوقت وثنيين. **وفي عام ٤٩٣ تزوج ملكهم كلوفيس من أميرة مسيحية من برجنديا هي كوتيلدا، التي فعلت كل ما يمكنها لتنصيره فلم تفلح.. وعندما هدد كلوفيس بالقهر في معركته ضد أعرق الشعوب الألمانية، فإنه أقسم في لحظة الخطر على أن يصير خادما لإله المسيحيين إذا كان النصر حليفه. وقد أبر بقسمه، فتعمد يوم عيد الميلاد عام ٤٩٦ ومعه ثلاثة آلاف من مقاتليه.**

لقد كان غالبية البرابرة الذين تحولوا إلى المسيحية على مذهب آريوس، أما كلوفيس فقد عمده أسقف كاثوليكي، وقد قبل، حسبما وسع تفكيره، الشكل الكاثوليكي للعقيدة المسيحية.

وعندما دخل البرابرة الكنيسة، فإنهم لم يحضروا لها البساطة الفاضلة للشعوب البدائية، وكان ما جلبوه إليها عبارة عن طبائع عنيفة غير مهذبة، مصحوبة بميل متأصل للتوحش والمغالاة..

إن شارلمان يعتبر بلا جدال واحدا من أعظم الشخصيات في تاريخ كل من الكنيسة والعالم.. **وما يهمنا في المقام الأول هنا هو امتداد الدائرة المسيحية عن طريق غزوات شارلمان ضد السكسون.. فقد كانوا مصدر خطر عليه، ولذلك قرر أن يخضعهم لسلطانه باستخدام مزيج من القوة المسلحة والعقيدة الدينية.**

فمنذ عام ٧٧٢ حتى عام ٧٩٨ ونحن نقرأ عن استمرار الغزوات المتعاقبة، وتحول إلى المسيحية، ومؤامرات، وأعمال قمع..

وبمجرد إخضاع إحدى القبائل الألمانية، فإن تحولها إلى المسيحية كان يندرج في بنود السلام، كثمن يمنح لها نظير تمتعها بحماية الإمبراطور وحكومته الرشيدة التي تحميها جيوشه. لكن هذا يعني ربط العقيدة الجديدة بالقوة الغازية، وهو أمر خطير. ذلك أن أي شرارة من الوطنية، أو أي حركة من المقاومة للعنصر المتسلط، إنما تأخذ – على قدم المساواة – شكل المعارضة العنيفة للعقيدة المسيحية. **وعلى هذا فإن كل ثورة من الشعب كان يصاحبها بعث جديد للوثنية.** وتلقى القصة الطويلة للاستشهاد والمذابح، ضوءا شاحبا على العمليات التي تم بها أخيرا تحول السكسون إلى المسيحية.

لقد سجل أنه في إحدى المناسبات، قتل شارلمان ٤٥٠٠ سكسوني في يوم واحد.

وتفرض قوانين الدولة عقوبات وحشية ضد أي خرق لمجموعة القواعد المسيحية، ومنها:

أن أي سكسوني غير معمد، يحاول أن يختبئ بين شعبه، ويرفض قبول التعميد مسيحيا، سوف يقتل.

وأن أي شخص يتآمر مع الوثنيين ضد المسيحيين، سوف يقتل»[1]

وهكذا استخدمت المسيحية لخدمة سياسة الحكام الذين حملوا السيف لإكراه رعاياهم على قبولها دينا.

النرويج:

«لقد حدث في النرويج ما حدث في الدنمرك، إذ لعبت السلطة الملكية دورا كبيرا في نشر العقيدة المسيحية.

إن أول بطل متميز في الغزوة المسيحية للنرويج، كان ذلك القرصان الإسكندنافي الطائش أولاف تريجفسن.. فقد كان في عام ٩٩٠ في مكان ما بجزيرة صقلية، وهناك تأثر كثيرا بأحد النساك الذي قابله صدفة ثم تعمد على يديه. وفي عام ٩٩٥ عاد أولاف إلى النرويج وبعد قليل انتخب ملكا على الإقليم.

وبمجرد انتخابه ملكا فقد بدا أولاف في جعل عقيدته لتكون عقيدة كل النرويجيين.

وقد استخدم لذلك كل الأسلحة: المداهنة، والخداع، والتحريض، وعندما فشل كل ذلك فإنه استخدم الإجبار المحض دون مواربة.

وفي أغلب الحالات، عندما رأى الرعية أن الملك كان مستعدا عند الضرورة أن يكرههم على ابتلاع عقيدته «المسيحية» بحد السيف، فإنهم جنحوا إلى العقل، ووصلوا إلى حل ديمقراطي سعيد «كما يقول المبشرنيل» حيث وافق الجميع على استبدال المسيحية بعقيدتهم القديمة»[2]

وهكذا تحول شعب النرويج إلى المسيحية بحد السيف.

---

(1) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ٥٨، ٥٩، ٧٩، ٨٠

(2) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ١٠٥

obeikandl.com

السويد:

«لقد كانت السويد أكثر بطئا من غيرها من البلاد الإسكندنافية في اعتناق المسيحية. **وفي أوائل القرن الحادي عشر كان أولوف سكوثوننج أول ملك مسيحي.. وقد قوبلت محاولاته بتنصير شعبه بمقاومة عنيدة. وقد ذهب تصميمه القوى على هدم المعبد الشهير في أوبسالا** سدى، فقد بقى المعبد واستمر تقديم القرابين فيه قرابة قرن بعد عهده.

وبعد أولوف بنحو قرن أصبح إنج ملكا، وقد حاول مرة ثانية أن يبطل القرابين، **وأصر على تعميد شعبه، لكن مقاومة الوثنيين وقفت ضده مرة أخرى.** ولم يستتب الأمر للمسيحية إلا مؤخرا في عهد سفركر (١١٣٠ -١١٥٥م)[١]

إن قصة دخول المسيحية السويد لا تختلف عن نظيرتها في البلاد الأوروبية الأخرى، إذ تبدأ بحاكم يقبلها – لسبب أو لآخر – ثم لا يلبث أن يفرضها على شعبه كرها.

فنلندا:

«في عام ١١٥٥ قام إريك التاسع ملك السويد. **بحملة صليبية** على نطاق واسع ضد فنلندا، وبالإضافة إلى فرض سيطرته العسكرية **فإنه طلب ضرورة تعميد السكان الفنلنديين.** وقد صاحب إريك المطران الإنجليزي هنرى، الذي يبدو أنه بقى هناك بعد عودة الملك إلى وطنه، بغرض استقرار النظام المسيحي في فنلندا. **وأثناء المقاومة الوثنية المعتادة** استشهد هنري.. وكان تقدم المسيحية بين الفنلنديين بطيئا جدا. وفي عام ١٢٩١ يمكن القول فقط بأن تحول الإقليم ظاهريا إلى المسيحية قد بلغ غايته»[٢]

لقد استغرق تحول فنلندا إلى المسيحية زهاء ١٥٠ عاما، بدأت بالعنف والقهر واستمرت كذلك يدعمها النفوذ السويدي إلى أن تم تعيين ماجنوس أول مطران فنلندي في عام ١٢٩١.

---

(1) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ١٠٨

(2) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ٢٥ ص ١٠٩

بروسيا:

«لقد كان يعيش في جنوب البلطيق وشرقه شعوب الوندال والبروسيين واللتوانيين، وعدد من شعوب أخرى، **لم تتحد جميعها إلا على شيء واحد هو تصميمها على ألا تكون مسيحية.** إن التبشير بالإنجيل لم يكن أبطأ ولا احتاج إلى جهود مضنية مثلما كان الحال في هذه المنطقة..

ومهما كان تفكيرنا في الطريقة التي اتبعت أخيرا، فإن التاريخ لا يستطيع إنكار أن إضافة هذه المناطق إلى العالم المسيحي كان سببه غزوات الفرسان التيوتونيين لقد سحبت تدريجيا جماعة الفرسان التيوتونيون التابعين لمستشفي القديسة مريم في أورشليم، والتي كان قد أسسها عام ١١٩٨ تجار من بريمن وليبك لمساعدة المرضى والجرحي في حصار عكا «أثناء الحروب الصليبية» لكي تخدم الكنيسة على الجبهة البروسية.

لقد كان المفهوم هو أن هذه الجماعة لديها تفويض بأن تضم إلى ممتلكاتها أي أراض تستولي عليها من الوثنيين، على شريطة أن تعطي الشعب المغلوب، التعاليم المسيحية كتعويض له عن فقد أراضيه !!

وقد حدث أخيرا، عندما عين مطارنة لتلك المناطق، **أن عدل البابا المنحة، حيث جعل الثلثين للغزاة «الفرسان» والثلث للمطارنة.**

إن الوثنيين رغم كونهم شجعانا فقد عجزوا عن الوقوف في وجه فرسان الإمبراطورية المنضبطين. **لقد انقضت خمسون عاما في أعمال الغزو**، وفي نهاية تلك الفترة انتهت المقاومة، وانضمت بروسيا إلى العالم المسيحي..

لقد جاءت هنا كل أجهزة التبشير المسيحية في القرون الوسطى لترافق الغزو الحربي. وكانت بنود المعاهدة «بين الغزاة المبشرين والبروسيين» أبعد ما تكون عن اعتبارها مهذبة أو صورة لنصيحة بالحسنى. لقد برز كل ذلك في صيغة أوامر، وكانت قوات المراقبة ذات الدرجة العالية من الكفاءة – لكل من الكنيسة والدولة- هناك، لتتأكد من إطاعة الأوامر بكل دقة.

قد يكون موضع تساؤل: إلى أي مدى كان الاقتناع الداخلي متمشيا مع المظهر الخارجي لممارسات العقيدة؟

لكنه سؤال مقلق لا يزال يتعقبنا «نحن المسيحيين» منذ حمل شرلمان السيف ليساعد على تنصير السكسون، بل إنه في الواقع يلاحقنا منذ زمن التعميد بالجملة لكلوفيس ورجاله في عام ٤٩٦»[1]

إن فرض عقيدة دينية على الإنسان قد يكون موضع جدل، فقد يوجد بين المبشرين بتلك العقيدة من يعتذر لهذا العمل بدعوى إنقاذ ذلك الإنسان من الهلاك. لكن الشيء الذي لا يقبل الجدل هو إكراه الإنسان على شراء مثل تلك العقيدة، وقيام البائع بفرض ثمن باهظ لها. ويزداد الموقف سوءا حين يرفع المبشرون بتلك العقيدة المفروضة، دعوى المحبة والتسامح، والعطاء وليس الأخذ.

روسيا:

خلفت الأميرة أولجا زوجها في حكم كييف في الفترة ٩٤٥-٩٦٤م، «وفي عام ٩٥٧ قررت أولجا الذهاب إلى القسطنطينية لتعمد على يدي البطريرك.. لكن الأمور لم تسر وفق خطط الأميرة، **فقد وجدت عند عودتها أن نبلاءها لم يكونوا مستعدين بأي حال من الأحوال لاقتفاء أثرها في الانضمام إلى الكنيسة.**

ورغبة في تشديد قبضتها، فقد سارت أولجا وفق تقاليد عصرها المضطربة، فأرسلت سفارة إلى الإمبراطور الغربي أوتو تسأله أن يبعث إليها بمطران. ولقد أجابها أوتو سريعا، إلا أنه حدث قبل وصول رسوله «المطران» إلى كييف أن تغير الوضع، إذ قام سفياتوسلاف – ابن أولجا- بالاستيلاء على السلطة، وارتمى كلية في أحضان مقاومي المسيحية.

---

(1) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ١٠٩ -١١١

ولقد كانت هناك فترة بدا فيها إمكانية تحول سفياتوسلاف وبلاطه بالكامل إلى الإسلام، إذ أنه هزم شعبا من الأتراك المسلمين على ضفاف نهر الفولجا، وخلال الفترة التي بقيها بينهم، فإن أسلوب حياتهم قد اجتذبه تماما إليهم. لو أن روسيا تحولت إلى الإسلام لتغير تاريخ العالم تماما، إلا أن الدبلوماسية البيزنطية منعت هذا الخطر «كما يراه الصليبيون والمبشرون ومنهم ستيفن نيل هذا!»..

لقد كان في عهد فلاديمير (٩٨٠-١٠١٥م) ابن سفياتوسلاف أن صارت روسيا مسيحية. وتقص علينا أقدم المصادر الروسية قصة طريفة عن الطريقة التي أرسل بها فلاديمير مفوضين عنه في شتى الأنحاء ليتحروا حقيقة الديانات التي يدعو لها جيرانه، **وذلك لكي يعتنق بالنيابة عن شعبه، تلك التي يثبت أنها أسمى العقائد..**

ولقد بدت احتفالات الكنيسة الغربية التي شاهدوها في ألمانيا بسيطة في نظرهم. ولكن بعد وصولهم إلى القسطنطينية وجدوا ما كانوا يبحثون عنه..

إن هذا يبين لنا بشكل واضح التأثيرات المختلفة التي كانت تفعل فعلها آنذاك في بلاط كييف ، وذلك القرار الذي اتخذه الحاكم ليقف تماما في جانب القسطنطينية»[1]

وهكذا كان تحول روسيا إلى المسيحية بناء على مشورة جماعة من النظارة، لم تثرهم المشاهد التي رأوها في مسيحية ألمانيا بقدر ما راعتهم تلك التي شاهدوها في مسيحية القسطنطينية بمباهجها المعروفة، ومن ثم قبلوا مسيحيتها التي اعتنقها ذلك الأمير نيابة عن شعبه، وهم على آثاره مقتدون!

بولندا:

«يبدأ التاريخ المسيحي بالدوق ميسزكا الذي اضطر في عام ٩٦٣ إلى الاعتراف بسيادة الإمبراطور أوتو الأول. ولقد تزوج بسيدة مسيحية هي دوبراوا، أخت بولسلاف الثاني دوق

---

(1) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص٨٨، ٨٩

بوهيميا. وفي عام ٩٦٦ أو ٩٦٧ **يحتمل أن يكون قد وافق على تعميده مسيحيا تحت تأثيرها.** وتبع هذا الحادث إنشاء أسقفية في بولندا عام ٩٦٨..

وتحت حكم ابن ميسزكا – واسمه بولسلاف- الذي حكم من ٩٩٢ إلى ١٠٢٥، فإن بولندا تقدمت كثيرا في القوة السياسية والاستقرار الكنسي. لقد وسع بولسلاف ممتلكاته لدرجة كبيرة، وجعل بولندا أكبر مملكة في أوروبا الشرقية..

لكن الأحوال في بولندا كانت دائما غير مستقرة، فبعد موت بولسلاف تمزق كل شيء لمدة من الزمن، ولم يكتمل تحول بولندا إلا المسيحية إلى بعد قرن من الاضطراب ثم إعادة التنظيم»[1]

المجر:

«تزوج أميرها جيزا في عام ٩٧٣ أميرة مسيحية هي أوهيد البولندية، كزوجة ثانية له، وبعد عامين تعمد مع ابنه الصغير فاجك الذي سمى ستيفن. **ومنذ ذلك الموقف فصاعدا، فإن جيزا عقد العزم على تحويل بلده إلى المسيحية ولما كان الترغيب لم يأت بنتائج فعالة، فإنه لجأ إلى وسائل أخرى غير مقبولة، ومن ثم تضاعفت أعداد المتنصرين بسرعة.** وفي عام ٩٩٥ تزوج ستيفن من جيزلا ابنة هنري الثاني دوق بافاريا؛ وهكذا سار في فلك العالم الغربي. وخلال حكمه (٩٧٥-١٠٣٨) أصبحت المجر بلدًا مسيحيًّا حقًا..

ومن الطبيعي أن يعقب موت ستيفن حدوث نكسة للمسيحية.. لكنها تجاوزت الأخطار المختلفة التي كانت تهددها. وفي نهاية القرن الحادي عشر قبلت المسيحية بوجه عام باعتبارها الديانة الوطنية للشعب المجري»[2]

---

(1) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص٩٢،٩٣

(2) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ٩٣،٩٤

إن قصة تحول بلاد شرق أوروبا ـ وروسيا ـ إلى المسيحية تماثل نظيرها في البلاد الأوروبية الأخرى، إذ تقوم عناصرها الرئيسية على تسخير الدين لخدمة السياسة وتثبيت الحكم بمختلف الوسائل، وفي مقدمتها إكراه الشعب على اعتناق دين الحاكم. وهي قصة متكررة، اصطبغت دائما بالعنف والدموية وأحابيل السياسة وطموح النساء اللاتي كان تأثيرهن عاملًا مشتركًا في تحول أزواجهن الحكام، ومن خلفهم عامة الشعب.

❊❊❊❊

obeikandl.com